جمال الدين القاسمي وعصره

في سير كبار الرجال في التاريخ ـ عظات وعبر ، وفي قيامهم بالأعمال الكبرى ، دروس عملية تدعو المفكرين بها ، والمستعدين للقيام بمثلها ، إلى نهضة قديمة ، وأخلاق عظيمة ، تدك الصروح الوهمية للقاصرين عن القيام بما يماثلها ، وتهدم معامل الغرور التي يأوي إليها الكسالى والحساد فأهل الإيمان الصادق ، والكلم الطيب ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، أولئك لهم الحسنى ، والمقام الأسنى ، في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأولئك هم الفائزون .

أمامي الآن هذا التاريخ الجليل لإمام من أئمة هذا العصر وهو الشيخ جمال الدين القاسمي ، ألفه ولده السيد ظافر بعنوان جمال الدين القاسمي وعصره ، وهو كتاب حافل بسيرته العطرة ، بلغ نحو سبعمائة صفحة ، حاوية أهم أخباره ، وأعظم آثاره ، وفي مقدمتها تمهيد بعنوان (اكتب عن أبيك بحب) شرح فيه فلسفة هذه الكلمة وما تشير إليه ، وتدل عليه ، ودعاه ذلك إلى العود إلى كتب التاريخ فرأى الخطط والمناهج المختلفة ، فبَعُد بقلمه عن الغلو والتساهل واختار تدوين الحقائق التي هي الوسط المحمي من إفراط وتفريط ، وصف فيه عصر القاسمي الأول ، في عهد الاستبداد المطلق وأيامه السود ، وخلص منه إلى الترجمة التي اشتملت على نسبه وتاريخ ولادته ، ونشأته ومشيخته ، وكبار أشياخه كالشيخ بكري العطار ، والشيخ محمد بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محمد الخاني ، وخال والده الشيخ حسن جُبَيْنة ، وغيرهم ممن تتلمذ لهم وقرأ عليهم ، وممن صحبهم كالشيخ عبد الرزاق البيطار ، والسيد أحمد الحسني الجزائري أخي الأمير عبد القادر الشهير ، ثم على إقرائه للطلبة من حداثة سنه ، وتدريسه في المساجد لا سيما في جامع السنانية ، وقد كان إمامه ومدرسه بعد أبيه الشيخ محمد سعيد وأورد محنته مع فريق من علماء دمشق عام ١٣١٣هـ المسماة بحادثة المجتهدين ، وقد خطها بقلمه ، وقال في ختامها : وبعد هذه الحادثة ارتفع بحمد الله قدرنا ، وعلا بفضله وستره ذكرنا . ثم بيّن طريقته في التأليف وأسلوبه فيه ، وثقافته العامة والخاصة ودراسته للكتب وتعليقه عليها ، وأعلن وقفه لمكتبته الواسعة ، ورحلاته القريبه والبعيدة ، وأجلّها رحلته إلى المدينة المنورة ، وأجملها إلى الأقطار المصرية مع صفيه الشيخ عبد الرزاق البيطار ، ونزولهما ضيوفاً على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وعلى رفيق بك العظم صاحب أشهر مشاهير الإسلام ، وحكمته بدعوته إلى الله تعالى مع ورعه ، وحياته الخاصة في طفولته ، وشبابه ، ومعاملته لأبويه وإخوته وأهله وأولاده ، ثم مقته للاضطهاد ومحبته للحرية الدستورية ، وأمانته العلمية ، وحبه لدمشق وتأليفه في تاريخها ومحاسنها ، وآراؤه وأفكاره ، ثم (السوانح) مما هو داخل في باب آراء القاسمي وأفكاره (من ص ٢٦١ — ٣٢٦) ومفكراته ، وقد درج شيخنا القاسمي على تدوين مذكراته اليومية في (المفكرات) المعروفة من (ص ٣٢٨ — ٣٦٩) ، ثم القاسمي والمدنية الحديثة ، القاسمي ومعاصروه ، وهنا أورد من معاصري القاسمي الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والأمير شكيب أرسلان ، والشيخ طاهر الجزائري والأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، والقاسمي والدولة العربية ، ومراسلاته ، والرسائل الواردة ، والرسائل الصادرة ، ومؤلفاته ، المطبوع منها والمخطوط ، وبعد الخاتمة : تصويبات واستدراك ثم الفهرس ، وبهذا تم الكتاب وآخر فهرسه ص ٧٠٠ . ولما طالعته للمرة الأولى بعد طبعه ، أحصيت الأخطاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المطبعية فيه كما جاء في كلام المؤلف صديقنا السيد ظافر (ص ٦٩١). وبعد وفاة المرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي الذي عهد اليه بالكتابة عنه وقد عاجلته المنية قبل أن يكتب ـ أحيل ذلك إلي ، فلم يسعني إلا دراسة الكتاب ثانيةً ، لا سيما والإمام القاسمي هو أستاذنا الجليل ، فقد لازمته مع زملائي في الطلب والتحصيل للمعقول والمنقول بضع سنين .

والطالع لهذا الكتاب بدقة وعناية ، يرى فيه فوائد كثيرة ، وفرائد انفرد بها القاسمي عن غيره ، واني مقتطف بعض هذه الثمرات الشهية ، ومعلق عليها ليقف قراء مجلة مجمع اللغة العربية على ذلك .

(العقل والنقل)

« اتفق العلماء على أنه إذا تعارض العقل والنقل ، أُوِّل النقل بالعقل ، إذ لا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما ، لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ، ولا بانتفاء ذلك ، لاستلزامه ارتفاع النقيضين ، لكن بقي أن يقدم النقل على العقل ، أو العقل على النقل ، والأول باطلٌ لأنه إبطال للأصل بالفرع » ص ٢٤٣ أقول لشيخ الإسلام ابن تيمية بحث مهم في هذا الموضوع منه قوله :

الدليلان القطعيان لا يتعارضان أصلا ، سواء أكانا سمعيين أم عقليين ، أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقليا ، ويقدم القطعي على الظني منهما . (قال) : وقد قدم المؤولون والمعطّلون العقلي على السمعي بدعوى أنه الأصل ، وبيَّن بطلان هذا رحمه الله عقلاً ونقلاً كما تراه في (ص ٤٢) وغيرها من كتابه (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) المطبوع على هامش كتاب (منهاج السنة النبوية) ولعل شيخنا القاسمي أخيراً رأى هذا ، وهو أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القطعيين من عقل ونقل لا يتعارضان ، وأن القطعي منهما مقدم على الظني . (القدرية — أو المعتزلة)[1] .

وربما يظن قليل الاطلاع أن المعتزلة ، وإن شئت فقل القدرية فئة لا يؤبه لهم ، ولا يقام لهم وزن ، لأنهم في نظر الأعشى كالمارقة ، ولكن ماذا يكون جوابه إذا تلونا عليه أسماء القدرية من السلف ، (وعدّ شيخنا القاسمي منهم لأكثر من ثلاثين) ثم قال : وأما عِدّة من أخرج لهم الشيخان — البخاري ومسلم أو أحدهما منهم : (وعدّ أكثر من ثلاثين أيضاً نقلاً عن تدريب الراوي ، شرح تقريب النواوي) اهـ ص ٢٤٩ منه .

(الإسلام يجمع الفِرق ويعمّها)

أقول مؤيداً لما حققه شيخنا القاسمي : قال الشيخ أبو الحسن الأشعري في أول مقالات اختلاف الإسلاميين : اختلف المسلمون بعد نبيّهم في أشياء ضلل فيها بعضهم بعضا ، وتبرأ بعضهم من بعض ، إلاّ أن الإسلام يجمعهم فيعمهم ، فهذا مذهبه وعليه أكثر الأصحاب . ثم إنه ما من هؤلاء إلاّ مَن له في الإسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الردّ على أهل الإلحاد والبدع والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم ، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف . (ص ١١٦) من (حياة شيخ الإسلام ابن تيمية) .

---

(١) المعتزلة — ويسمّون أصحاب العدل والتوحيد — ويلقبون بالقَدَرية ، وهم نفاة القدَر ، القائلون بأن الله تعالى لا يعلم الأمور إلا بعد وقوعها !

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(تعريب الإسلام للامم الداخلة فيه)

قال القاسمي بمعرض تفسير قوله تعالى : « وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم ... » سورة الجمعة : ٣ « قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك الإخبار عن غيب وقع ، والبشارةُ بدخول أمم غير العرب في الإسلام قد حصل ، فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت من العرب ، لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولغتهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً ودِيناً ولغة ، وحتى صار لفظ « العرب » يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة ، « وإن هذه أمتكم أمة واحدة (١) » المؤمنون : ٥٢ .

أقول : يا ليت قومي يعلمون بأن العرب لم تكن لهم وحدة حقيقية ، ولا جامعة عربية يحافظون عليها ويدافعون عنها ، إلا بالتوحيد الذي ألف بين قلوبهم ، ووحد كلمتهم وعملهم ، فصانوا دماءهم ، وحفظوا أموالهم ، فقلّصوا ظل القياصرة والأكاسرة عنهم . ذلك بأن عقيدة التوحيد التي تغلغلت في نفوسهم وجرت في عروقهم ، قد ناطت رجاءهم في الله وحده ، لما أخذ العرب بهذه العقيدة المثلى ، طهرت عقولهم من لوثات الشرك والأضاليل ، وزكت نفوسهم من الرذائل والنقائص ، وأصبحوا علماء حكماء ، و « خيرَ أمة أخرجت للناس » . ظهرت على أيديهم تلك المدنية الزاهرة ، التي جددت ما اندرس من المدنيات الغابرة ، وأوجدت أصول مخترعات الأمم المعاصرة . والإسلام هو الذي نشر لغة القرآن العظيم في الأقطار ، وبلغ بأمته وبلغته ما بلغ الليل والنهار .

(١) محاسن التأويل ج ١٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(فدية الصيام)

« وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » أي وعلى الذين يطيقون صومه إذا أفطروا بلا عذر (من المرض والسفر) كفارة ، وقد ذهب بعض الأئمة إلى وجوب الكفارة على المفطر عمداً بلا عذر ، ـ وهو ظاهر الآية ، وبه أقول ، إلا أن الآية ساكتة عن وجوب القضاء » ص ٢٦٧ .

يعلم من مفردات اللغة ومن غريب القرآن ، أن (الإطاقة) هي آخر درجات الإمكان ، وهي القدرة مع المشقة والكلفة ، فمن يشق عليه الصوم لسبب لا يرجى زواله كهرم وضعف بنية ومرض مزمن لا يرجى برؤه ، وكحمل وإرضاع ، فهؤلاء لهم أن يفطروا ويطعموا مسكيناً عوضاً عن كل يوم ؛ يضاف إلى ذلك كله وجوب الكفارة على من يفطر عمداً بلا عذر . أقول : لو أن أولي الشأن في جميع البلدان الإسلامية رعَوا هذا الأمر حق رعايته ، وأحصوا هذه الكفارات ، وهي فدية الصيام في بلاد الإسلام ، لكان منها للمساكين مطاعم وملاجىء ومشافي ، ويكون من ثمرات ذلك الإخاء والوفاء بين الأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء .

(النسخ والاحكام)

« واصطلاح السلف في المنسوخ ، غيره في اصطلاح أهل الأصول ، كما أوضحه ابن القيّم في الأعلام ، والسيوطي في الإتقان ، نقلاً عن المحققين » ص (٢٦٨) .

إن اسم النسخ شائع في كتب أصول الفقه ، والنسخ حقيقةً : الازالة ، وشروطه معروفة في الأصول ، وقد سموا به ما ليس منه توسعاً وتسامحاً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كتفصيل المجمل ، وبيان المبهم ، وتخصيص العام . وقد كنا أوردنا في مجلتنا هذه آيات من الكتاب العزيز ادُّعي فيها النسخ ، وجمعنا بينها جمعاً بيَّن أن كلاً منها محكم ، وأن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ (١) ، وذكرنا آخر البحث أن ما يورده بعضهم في آيات السِّلم وأنها نسختها آيات الحرب غير ثابت شرعاً ، وأن لكل وجهة ، والإسلام دين السلام ، لجميع الشعوب والأقوام ، وهو حرب على الأعداء المقاتلين له « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

(المرأة)

« إن كثيراً من نساء الصحب كن يأتين فيسألن النبي ﷺ في محضر من أصحابه ، وكان ﷺ يسير بمن معه إلى بعض بيوت أصحابه ، وتقوم المرأة عليهم ، وكان كثير يخدمن في الحرب الجرحى ، ويحملنهم إلى بيوتهم ، كما يمر ذلك بقارئ صحيح البخاري في كتاب الجهاد ، وغيره من أبوابه » (ص ٢٩٨ منه) كان نساء الصحب الكرام يشهدن الحروب ، ويضمدن الجروح ، ويهيئن الطعام المجاهدين ، ويواسين المرضى . ومنهن من كن يقاتلن الأعداء كالرجال ، مع المحافظة على اللباس الساتر غير الخاسر ، فهل تجدّد (المرأة) ذلك العهد الأول ؟ (كتب القاسمي ومجالس الشيخين) : « وما تراه في كتب القاسمي ، كانت للبيطار مشاركة فيه ظاهره أو مستترة » كان اجتماعها في الأسبوع مرة على الأقل ، وكانت المذاكرات العلمية دائمة بينها ، ومن تواضع شيخنا القاسمي أن تلقى على صديقه علم الهيئة والميقات والفلك ، وقد وعينا هذا نحن طلاب الشيخين . « وكانت مجالس الشيخين أرقى ندوة من ندوات العلم والأدب وخفة الظل في عصرهما ؛ حدثني بهذا تلاميذ الشيخ جميعاً » (ص ٢٨٨) .

(١) م ٤١ ج ٣ ص ٥١٤ ـ ٥١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لقد أدركنا طرَفاً من هذه المجالس الممتعة ، وكان من أثرها في نفسي أن قلت مرة لأستاذنا القاسمي : إني قد عرفت كثيراً من العلماء ، فلم أرَ أكرم منكما عشرة ، ولا أرقّ عاطفة ، ولا أخفّ روحاً ، ولا ألطف حديثاً ، مع ما رزقتما من سعة العلم والفضل ، فقل لي : لهذا كلّه ، نحن لا نأنس بغيرنا ، كما نأنس بأنفسنا ، ولا نسرّ إلا إذا كنا منفردين في مجالسنا الخاصة .

(الأمير شكيب أرسلان)

« والظاهر أن الأمير (شكيب أرسلان) ـ أعلى الله غرفته في الجنة ـ ما زال يحن إلى هذه المجالس ، ويمني نفسه بالاستمتاع بما يدور فيها » (ص٢٩٦) .

كان الأمير شكيب أرسلان صديقاً وفياً للشيخين ، دائم الاتصال بهما والاجتماع معهما على البعد والقرب ، وقد دامت مودته لذويهما بعد وفاتهما (رحمهم الله تعالى) ومن عظيم وفائه ـ بعد وفاة سيدي الجد ـ أن شرّفني بالزيارة ثلاث مرات أيام الجمع ويكون معه صديقنا الأستاذ عز الدين التنوخي أبو قيس الذي اعتاد أن يصلي الجمعة عندي ، وبعد سماع الأمير لخطبة الجمعة وأداء الصلاة في جامعنا (الدقّاق) من حي الميدان بدمشق — رجوته في الجمعة الثانية أن يمتع المصلين لا سيما المسنّين ، بسماع صوته خطيباً ، فهم يعرفونه بصداقته مع الشيخ البيطار من قبل فسرّ بهذا الاقتراح ، وألقى بعد صلاة الجمعة خطاباً بليغاً استمر نحو ساعة ، وكان جامعاً لأيامه الماضية مع الشيخين ، وتقديره لمجالسهما ، وحفظه لكثير من حكمهما وفوائدهما . وبعد فراغه من خطبته أقبل عليه المصلون يحيّونه ويشكرونه ، والمسنون منهم يعرّفونه بأنفسهم ، فأنس رحمه الله بلقائهم وحسن إخائهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(السيد محمد رشيد رضا)

قال السيد ظافر القاسمي : « ولعلّ كتاب المرحوم الأمير شكيب أرسلان (السيد رشيد رضا ، أو إخاء أربعين سنة) الذي طبع في دمشق ، هو الكتاب الوحيد الذي هدف صاحبه إلى تخليد هذا الرجل الفذ ، الذي وهب حياته وعقله وماله لخدمة العرب والمسلمين ومات مديناً » (ص ٤٤٣) .

ثم كتاب آخر عنوانه : رشيد رضا الإمام المجاهد ، للدكتور إبراهيم أحمد العدوي . ورقمه (٣٣) في سلسلة (أعلام العرب) طبع مصر ، وفيه تاريخ حياة السيد الإمام من مبدئها في قلمون وطرابلس ، إلى منتهاها في القاهرة ، ويبلغ أكثر من مائتين وثمانين صفحة بالقطع المتوسط ، وفيه الكثير الطيب عن صداقته مع أمير البيان شكيب أرسلان ، وصلته الروحية به . وثالث عنوانه : ذكرى حجة الإسلام صاحب المنار من رسائل (جمعية الشبان المسلمين ببغداد) في سبيل الجامعة الإسلامية .

(تفسير المنار)

قال السيد ظافر : « ولقد كانت دهشتي بالغة ، يوم دخلت باحة جامعة (الكوليج دو فرانس) في باريس ، صيف عام ١٩٥٨ ، ... فألقيت نظرة على جدران باحتها ، فوجدت عليها برنامج العام الدراسي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ، وفيه محاضرات استغرقت أربعة أشهر للأستاذ المستشرق (هنري لاووست) موضوعها « تفسير المنار » ... إن كلياتنا وجامعاتنا قد أغفلت دراسة هذا المفرد العلم ، وانفردت باريس وحدها بنشر معارفه في تفسيره ليس غير » (ص ٤٤٣) .

في أواخر حياة السيد رحمه الله تعالى ، كثر العارفون بخصائص تفسير المنار ومزاياه ، والراغبون في اقتنائه ، حتى إن كتابه (الوحي المحمدي) - وهو تفسير آية من الوحي المعجز - قد طبع في عهده ثلاث مرات ، في مدة أقصر من تقدير المؤلف لها ، وقد اعترف في الطبعة الثالثة بخطئه في تقدير المدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(الشيخ عبد الرزاق البيطار)

« كان البيطار يرى في القاسمي ولداً له ، لأن الفارق في السن بينهما ، كان واحداً وثلاثين عاما ، فقد ولد البيطار عام ١٢٥٢ هـ وولد القاسمي عام ١٢٨٣ هـ . ولهذا كان يخاطبه بقوله : « ولدي » . وتقديراً لما كان يتمتع به القاسمي من مزايا ، ولأن هذه البنوة روحية ، فقد أضاف إلى هذا النداء « ولدي » قوله رحمه الله : « المعظم » . (ص ٤٨٩) .

كان أكثر الناس صحبة للجد البيطار وملازمة له ، صديقه الأبر الشيخ جمال الدين القاسمي ، فهو صاحبه ومريده العظيم الذي كان له معه أدب الولد البار مع أبيه ، قرأ عليه رسالة في الفلك ، وكان ينسخها دروساً بخطه ، ويكتب على هامشها تقرير الأستاذ بنصه ، ولقد حضرت على شيخنا المرحوم القاسمي مع تلاميذه دروسه في بيته وجامعه ومدرسته ، نحو ثلاث سنوات ، فندر جدّاً أن يمر يوم يذكر لنا فيه الأستاذ البيطار ، إلاّ ويقرّر لنا فيه عظمته ، أو يطرفنا بنادرة مما اتفق له معه أو مع غيره ، وإذا ذكره في الدرس فيذكره بلفظ شيخنا ، وكان يعدّه عالم الشام . وفي (ج ١ من حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر) ترجمة للشيخ البيطار حافلة ، بقلم حفيده (محمد بهجة) (ص ٩ — ٢٠) وهذا التاريخ في ثلاثة مجلدات ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية (المجمع العلمي العربي) .

(الشيخ طاهر الجزائري)

« رسائل الجزائري غلبت فيها الفكره على الأسلوب ؛ وإذا كان الأسلوب جزلاً رائعاً لم يرد فيه السجع إلا في النادر . وإذا كان قد عرف عن الجزائري أنه أستاذ جيل كامل ، وإذا كان القاسمي قد وصفه بأنه « المرقي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوحيد» فهذه رسائله أبلغ دليل على عقله الجبار ، الذي يولد الأفكار في كل حرف من حروفه » (ص ٥٠٩) .

للشيخ طاهر الجزائري فضل كبير في المحافظة على ما تبقى من المخطوطات في مكتبات دمشق العامة الموقوفة ، فقد امتدت يد سماسرة السوء اليها ، فاختلسوا الكثير منها ، وباعوه من الأجانب بثمن بخس . وقد كان من رحمته تعالى أن سخر لهذه الخزانات الخطية هذا العالم الواسع الاطلاع ، العارف بقيمتها العلمية والأثرية ، فعني بها كل العناية ، وجمعها كلها ونقلها إلى المكتبة الظاهرية . وقد قالت السيدة أسماء الحمصي الأمينة لمخطوطاتها : « حتى إذا ما أشرف هذا القرن على نهايته ، وكادت ظاهريتنا تلفظ أنفاسها ، أعادها الله إلى الحياة بروح جديدة وثوب جديد ، على يد طائفة من العلماء الأجلاء ، أبرزهم المرحوم الشيخ طاهر الجزائري ، ومنذئذ عرفت بدار الكتب الظاهرية ، وتابعت مسيرها عبر الزمن ، لتؤدي الرسالة التي أخذت على نفسها أداءها على خير وجه » . وقالت في أوائل هذا المقال الممتع : « وزادني حباً لهذه الدار أنها كانت مدرسة ترددت في جنباتها أصوات طائفة كبيرة من العلماء الأعلام ، وتخرجت منها أعداد لا تحصى من طلبة علوم الدين والدنيا كان لهم دورهم في عالم الفكر والروح خلال سبعة قرون . فخطر لي أن أدون ما تقع عليه يدي من أخبار هذه المدرسة والعاملين فيها منذ تأسيسها حتى اليوم ، فيكون بحثي هذا اعترافاً بفضلها لما أسدته وتسديه لأمتنا من خير ، وللعلم من خدمة » .

(شيخ الإسلام ابن تيمية ومؤلفاته)

« وإني ـ ولله الحمد ـ نشأت على حب مؤلفات شيخ الإسلام (ابن تيمية) والحرص عليها ، والدعوة إليها ، وأعتقد أن مَن لم يطالع بها ، لم يشمّ رائحة العلم الصحيح ، ولا ذاق لذة فهم العقل السليم » (ص ٥٩٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية ترجيح لمذهب السلف في الاعتقاد على مذهب المتأخرين وبيان أن أهل الحديث هم أولى بالصواب ، وفي كتابه المطبوع (بيان موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول) دفع ما يورده حذّاق علماء الكلام والفلسفة في مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، ونقضُ قواعدهم وأقوالهم ، مما لا تؤيده فطرة سليمة ، ولا ميزان مستقيم ، ولا عقل صريح ، ولا نقل صحيح ؛ بل هذه كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد ، قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها ، مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » وقوله : « ليس كمثله شيء » ردّ للتشبيه والتمثيل ، وقوله : « وهو السميع البصير » دفع للإلحاد والتعطيل . وفي طلائع كتاب الاستغاثة المعروف بالردّ على البكري مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسِّيَر والتاريخ والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة . ولكاتب هذه السطور مؤلف مطبوع في (حياة شيخ الإسلام ابن تيمية) وقد نشر أولاً في مجلة مجمعنا العلمي العربي ، ثم طبعه المكتب الإسلامي سنة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م وبلغ نحو مائتين وعشرين صفحة .

(أصول الفقه الإسلامي)

وفي نفس الصفحة (٥٩٦) من جواب شيخنا للأستاذ محمد نصيف : « ولا يخفى أخي أن فن الأصول فن عظيم ، مَن لم يقرأه لا يعلم مآخذ الأئمة ، ولا مسند الأحكام . وقد ذكر (ابن اللحام) في قواعده أن بعض العلماء أوجب قراءته قبل الفروع » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن من القواعد القرآنية ، والمبادي الكلية العامة التي اشتقت منها ، أخذ علماء الأصول قواعدهم ، وبنى عليها الفقهاء أحكامهم فالقرآن الكريم في هذا الباب هو أصل الأصول ، ومصدر التشريع والتفريع ، والاستنباط والتخريج ، وقضت به سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، في النوازل والأحكام ، فتولدت الفروع من الأصول ، وتنوعت فيها المآخذ والمدارك ، ودونت المذاهب على تراخي العصور .

مثال ذلك ماجاء في أول سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وهو أمر بالوفاء في كل عقد عَقَدَهُ المؤمن وارتبط به مع غيره ، ويدخل في هذا الباب العقد بالفعل ، كاعطاء المال لمن بيده تذاكر السفر في البواخر ، والمراكب البرية والجوية . وقوله : « وأوفوا بالعهد » فهو أمر بالوفاء بالعهود كلها ، وقال : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » ؛ فهذه الأدلة تثبت النظرية العامة في العقود ، ويدخل فيها جميع ما أورده الفقهاء في أبواب المعاملات التي عقدوها في كتبهم ، وما سكت عنه الشارع رحمة منه غير نسيان (من مقال لي في الموضوع) .

وأقول : عُني أستاذنا القاسمي بهذا الفن ـ فن الأصول ـ كل العناية ، ورأى فيه مجموعات موجزة جديرة بالطبع والنشر ، ولكنها تحتاج إلى تعليقات توضح مبهمها ، وتجلي قواعدها بشواهد تزيل عنها اللَّبس والغموض ، (فمنها) مجموع رسائل ، أولاها للسيوطي في أصول التفسير ، والثانية والثالثة في أصول الفقه لابن حزم الأندلسي ، وابن عبدالهادي المقدسي . طبع دمشق سنة ١٣٢١ هـ .

والمجموع الثاني مشتمل على أربع رسائل في أصول الفقه ، طبع بيروت سنة ١٣٢٤ : لابن فورك الأصبهاني وابن عربي ، ونجم الدين الطوفي ، والجلال السيوطي . شرح (لقطة العجلان للزركشي) لخص فيه مبادئ أربعة علوم :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأصول والمنطق والحكمة والكلام . وهذا الشرح كان عام (١٣٢٥) وهو مع شرحه مشتمل على أصول هذه الفنون الأربعة وقواعدها وأمهات مسائلها . ورسالة في الأصول لشيخنا القاسمي يقول : اقتصرت فيها على لباب اللباب ، ونسجتها على منوال جديد ، وقد تضمنت مباحث هامة في الفتيا والاجتهاد وغيرها .

وأخيراً : شرح لباب المحصول في علم الأصول ، لابن رشيق (الأصل مخطوط ، وهو اختصار المستصفى للغزالي) قال شيخنا القاسمي : وقد تم ما أردنا تحقيقه سنة ١٣٢٧ هـ .

أقول : طبع المستصفى منذ سنين في مجلدين كبيرين .

(حياة البخاري)

كان أستاذنا القاسمي رحمه الله ألف كتاباً في (حياة البخاري) ذكر فيه مَن خرّج له في صحيحه ممن رمي بالابتداع ، وبين أن ثقات المحدثين ، يأخذون عن كل ثبت صدوق حتى عن الخوارج ، لأنهم كانوا يرون الكذب كفرا ، وكان يرى الحق أن تُسمَّى هذه الفِرَق المبدَّعين لا المبتدعين ، لأنهم لم يقصدوا الابتداع في الدين ، وهم يَدينون الله تعالى بما صاروا إليه ، ويلقَونه عليه .

(ميزان الجرح والتعديل)

ثم ألف كتاباً آخر أوسع في هذا الموضوع ، سمّاه (ميزان الجرح والتعديل) ، وعدّ من أخرج لهم الشيخان البخاري ومسلم أو أحدهما من المعتزلة أو القَدَرية — وهم نفاة القدَر القائلون : إن الله تعالى لا يعلم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأمور إلا بعد وقوعها — فبلغوا أكثر من ثلاثين ، وذكر أسماءهم ، ثم دعا إلى الوحدة اقتداء بالسلف . وكنت نقلت عن الإمام أبي الحسن الأشعري — تأييداً لهذه الوحدة — أن الإسلام يجمع الفرق فيعمّهم ، وما من هؤلاء إلا مَن له في الإسلام أعمال مشكورة ، وحسنات مبرورة ، ولهم في الرد على أهل الإلحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ، ما لا يخفى على مَن عرف أحوالهم ، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف .

ختام كلمة الأستاذ السيد ظافر القاسمي

قال المؤلف السيد ظافر القاسمي على جمعه واستيعابه لأنفع ما ينتفع به من سيرة والده الكريمة ، وأخلاقه العظيمة ، وتآليفه الممتعة ، فمن رأى من أهل العلم نقصاً أكمله ، ومن وجد فتقاً رتقه ، ومن أحس بي عجزاً سدّده ، أو عوجاً قوّمه » ، ثم دعا إلى التعاون معه بحجة واضحة ، وهي أن القاسمي ليس ملكاً لأولاده ، ولا لأحد من الناس ، وهذه كتبه تطوف العالم الإسلامي ، وتدرس في كليات الشريعة » (ص ٦٩٢) .

وبناء على هذا ، فإنا نوجه الأنظار إلى ما لم يطبع من مؤلفاته النفيسة ، وإني ذاكر بعضها ومذكّر بسائرها :

١ — الكناشة التي تضمنت فوائد متنوعة ، في الفقه والحديث والأدب والتاريخ ، وبعض التراجم لأعلام من عصره .

٢ — الآراء الفلسفية في الموت ، وفي علاج الخوف منه ، وفي رفع الأوهام عنه ، وفي رحمة وجوده ، وفي أنّ الحياة الحقيقية بعد الموت .

٣ — كيف وجدت المذاهب ، وما سبب اختلافها وتنوعها ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٤ — أجوبة لمسائل منوعة مهمة جديرة بالطبع .

٥ — شرح العقائد ، وهو من الكتب التي ألفها في أواخر حياته ، فجاءت جامعة لخلاصة علمه واطلاعه ، في علمي التوحيد والكلام .

٦ — قرابة عشرين دشتا فيها أوراق مبعثرة لم أفتحها ، ولا أعرف ما فيها ، وكل ما أدريه أنها مليئة بأوراق مخطوطة متنوعة .

هذه بضع رسائل وكتب من مخلفات شيخنا القاسمي تركها في مكتبته الواسعة الموقوفة ، ونقلتها من تاريخ الأستاذ السيد ظافر لأبيه الجمال (رحمه الله ورضي عنه) ، وهي من أهم ما يجب نشره وتعميمه ، فلعل المولى تعالى ييسر لها من يعنى بطبعها ونشرها هي وغيرها من مخطوطاته ، لتكون الفائدة تامة عامة .

محمد بهجة البيطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net